٢١٤

الصحابة

٧

أبو ذر الغفارى

العالم الزاهد

بقلم : فاطمة هانم طه

رسوم داخلية: منى جامع

الطبعة الثانية

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

طه ، فاطمة هاتم .
أبو ذر الغفارى : العالم الزاهد .
بقلم : فاطمة هاتم طه ؛ رسوم داخلية : منى جامع .
- ط ٢ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٧ .
٤٠ ص ؛ ٢٤ سم . / (الصحابة ؛ ٧)
تدمك ٦ - ٧١٠٥ - ٢ ٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - الصحابة والتابعون.
٢ - الغفارى ، جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد ، ٠٠٠ - ٦٥٢
أ - جامع ، منى (رسام) .
ب - العنوان . جـ - السلسلة

ديوى ٢٣٩,٩

رقم الإيداع ٢٢٠٦٧ / ٢٠٠٧ ٦٦ / ٢٠٠٧ /٧

تصميم الغلاف
شريفة أبو سيف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

۞ شَاعَتِ الفوْضَى فى مُجتمعِ الجَزيرةِ العربيَّة، وعَاشت القبائلُ فى ظَلاَمِ الجَاهِليّة، وقامَتِ الحروبُ بينَ قبائلهَا لأتفهِ الأَسْباب، وكانت القبائلُ القويّةُ تُغِيرُ عَلى الضعيفةِ، فَتنهبُ أموالهَا وتَسبى أطفالهَا ونساءَهَا ورجالهَا؛ لتبيعَهُم لمنْ يدفعُ الثمنَ فَيصْبحوا عبيدًا وَهُم الأحْرَار.. وأَصَروا عَلى ارتكابِ المحرَّمَات مِنْ شُربِ الخمرِ إلى لعبِ الميْسِرِ وارتكابِ أَبْشَعِ الأعمَالِ وعبادةِ الأوثَانِ التى يصنعونهَا من الحجرِ أو الطينِ أوالحَلْوى ثم يَعْكِفُونَ عَلى عبادتهَا وتَقْديم القرَابين لهَا تقرُّبًا وطلبًا للبرَكَة .

وَسَطَ هذَا الظّلاَمَ والفسَاد الذى شَاعَ فى بلادِ العرب، كانت هناكَ أقليّة منَ الناسِ يكرهُونَ هذِهِ الحياةَ الفاسِدَةَ، ويكرهونَ ما فيها من ضلالٍ وجهْلٍ، يدفعُهُم إحساسُهُم الفِطْرىّ الطاهرُ إلى الابتعادِ عن تلكَ العاداتِ القبيحَةِ. فكانَ هؤلاءِ العُقلاَء يدعونَ عشَائِرَهم إلى البعدِ عن الفواحشِ، وتَتَبُّعِ خُطى الأجدادِ الأقدمَين الذِينَ كانُوا -ومَازالُوا- يعملُونَ بِتَعَاليمِ دينِ أَبيهم إبراهيم، وكان مِنْ هؤلاءِ الدُعَاة العقلاء رجلٌ منْ قبيلةِ غِفَار يُسَمَّى «جُنْدُبُ بنُ جَنَادَةَ الغِفَارِى» الذِى عُرِف بعدَ ذَلكَ بـ«أبى ذَرٍ الغِفَارِى» وأمه «رملة بنتُ رَبيعَة» وهى غِفَارِيَةٌ أيضًا.

كانت قبيلةُ غِفَار تسكنُ الصحراءَ العربيةَ عَلى بعدِ مَسِيرة ثَلاثة أيام منَ البحرِ الأحمرِ تتوسَّطُ المسَافةَ بينَ مكَّة والمدينَة..

وكان معظمُ أفرادهَا يحترفُونَ السَطْوَ «الهجوم» عَلى القوافلِ التجَاريَّة المسَافرةِ فى الصَّحرَاء، يغتصِبُونَ أموالهَا، حتَّى عَرفها العربُ جميعًا، وكانوا يعملُون ألفَ حسابٍ إذَا خرجُوا إلى التجارةِ ومَـرُّوا بتلكَ الأرضِ التى تسـكُنهَا تلكَ القبيلَـة التِى لاحِرْفة لرجَالهَا إلا السَّـرِقةَ واغتصَاب أموَالِ النـاس.. فكانتِ القوافلُ التجاريةُ التِى تمرُّ عَلى هَذِه القَبيلَة، تحرصُ على أنْ يكونَ معهَا الكثيرَ منَ الفرسَان الشجعَانِ للدفاعِ عَنْ أموالِهم وَتجارَتِهم.

***

وذاتَ يومٍ، هَبَّ رجالُ قبيلةِ غِفَار، يُغِيرونَ على إحْدَى القوافلِ المارَّةِ بأَرْضهم، فَجَلْجَلت السيوفُ، وصَهلَت الخيولُ خلالَ معركةٍ شـديدَة البَأس، بـينَ حُرَّاس تلكَ القافلـةِ والمُغِيرينَ عليهَا مِنْ غفار وعَلى رَأْسـهم شـيخُ القبيلةِ وكانَ يدْعى «خفاف» وبعدَ انتهـاءِ المعركةِ وغَلبة غِفار على حرَّاس القافلة، عَاد الجميعُ إلى مضَاربِ القبيلةِ مُـحَمَّلينَ بالغنائمِ والأموَال.

لَزِمَ «أبو ذَرّ» دَاره ولم يُشَـارِكْ فيمـا يفعلُه رجالُ القبيلةِ كَعَادتـه. وبعـدَ انتهاءِ المعركةِ دخـلَ عليه أَخُـوهُ وكان يُدعَى «أَنيس» وهو محملٌ بالغنائمِ والأَمْوال.. كانَ يعلمُ أَنّ «أَباذَرّ» لايُـحِبُّ أَنْ يشـتركَ مع القبيلةِ فى هذَا السطْوِ، ولكنه عَمَلهم ولايعرفـونَ غَيْرَه، كما أنه كانَ يخـافُ أنْ يصِفَه أصْحَابُه بالجُبْن والخوفِ مِنَ القتال.

نَظَر «أبو ذَرّ» إلى أخِيه نظرةَ عتابٍ وَلوْم.

فقالَ «أنيس» لأخيه : هذا عَجِيبٌ منك يا «أبا ذَرّ» عَهِدنَاكَ فارِسًا شجاعًا فلمَاذَا لاتخرجُ مَعَنَا ؟ !

قال «أبو ذَرّ»:أجلْ أنا فارسٌ شجاعٌ ولكنْ شجاعٌ فى الحقِ لا فِى السَطْو على أموالِ الناس.. أنتُم تُرِيدونَ أنْ تكُونوا لُصُوصًا يَا قبيلةَ غِفَار، كُونُوا كما تُرِيدونَ، ولكنِّى لنْ أكونَ لِصًّا أبدًا أو قاطِعَ طَرِيق.

قال «أنيس»: لقد اشتركتُ معهم وأصبتُ الكثيرَ مِنَ الخيرِ إبِلاً وحَرِيرًا وعُطورًا.

فردّ «أبو ذَرّ»: قُلْ أصبتُ شرًّا كثيرًا.. لَنْ يدخلَ هذَا المالُ دارنَا أبدًا، إنه مَال أتى مِنْ طريقِ السرقةِ والاغتِصَاب.

تَعجَّبَ «أنيس» وقالَ لأخيه: ولكننَا نعيشُ منذُ سنينَ على السطوِ والاغْتِصَابِ فلمَاذَا تعترضُ الآن يَا «أبا ذَرّ»؟!

قَالَ «أبو ذَرّ»: كنتُ غُلامًا صَغِيرَ السِن لاأفرقُ بينَ الاغتصَابِ وغيره، أمَّا الآن فأنا شابٌ فِى العشرينَ مِنْ عُمرى.. أستطيعُ أنْ أفرقَ بينَ المالِ الذِي يأتِى مِنْ طريقِ الاغتصَابِ وبينَ المالِ الذِى يأتِى مِنْ طريقِ العمَلِ والكَفَاح.

فَكرَ أنيس فِى كلامِ أخيه «أبى ذَرّ» فأحسَّ أنَّ فيه شيئًا مِنَ الصِدْق.

فقالَ له: لكَ مَا تشَاء يا «أبا ذَرّ» لنْ يدخلَ هذَا المالُ دَارَنَا.. ولكنْ قُلْ لِي يَا «أبا ذَرّ» مَاذَا نَصْنَعُ بِه إذَنْ ؟

قال «أبو ذَرّ»: نُوزِّعُه عَلى فقراءِ القبيلة.

قَال «أنيس» مُتعجبًا: فقراءُ القبيلَةِ؟ وهلْ نحنُ أغنياء يا «أبا ذَرّ»؟

قَال «أبو ذَرّ»: أجَلْ يا «أنيس».. إنَّ لدينَا مَانَأكُلُه ونلبسه أمَا فقراءُ القبيلةِ فليسَ لَدَيهم لا هَذَا ولاَ ذَاك..

فأطاعَ «أنيس» أخاه «أبا ذَرّ» ووزّعَ الغنائِمَ عَلى الفقرَاء.

***

كانَ «أبو ذَرّ الغفارى» مِنْ رجَالِ العلْمِ والفكْرِ ومنْ أصحَابِ الرأى السّديدِ والمعرفةِ والبصِيرَة، فلمْ يَعْبُدْ طوالَ حياتِهِ صنمًا، ولكنه كانَ بِفِطْرته يتجهُ بقلبِهِ إلى خَالقِ السماوَاتِ والأرض.. بينما كانت قَبِيلته شديدةُ الإيمَان بعبادةِ الأصنامِ شأن العربِ فى الجَاهلية.

وجَاء عَام انقطعَ فيه المطرُ، وجَفَّتِ المرَاعِى، وأصابَ القومَ ضيقٌ شَدِيدٌ، فقررَ رجالُ القبيلةِ الرحيلَ إلى كبيرِ الآلهةِ «الصنمِ مَنَاه» وهو إله المطَرِ كمَا كانُوا يَعْتَقِدُون، يُقَدمُونَ له القرابينَ والهدَايَا ويقيمُونَ حوله أيامًا يعبدُونه ويتوسَّلُونَ إليه أنْ يُرسلَ المطرَ عَلى أرَاضِيهم.. استعدّ الجميعُ للرحيلِ عَدَا «أبا ذَرّ» ظَلَّ قَابِعًا فى دَارِه.. نَظَرَ أنيس إلى أخِيه وقَالَ:

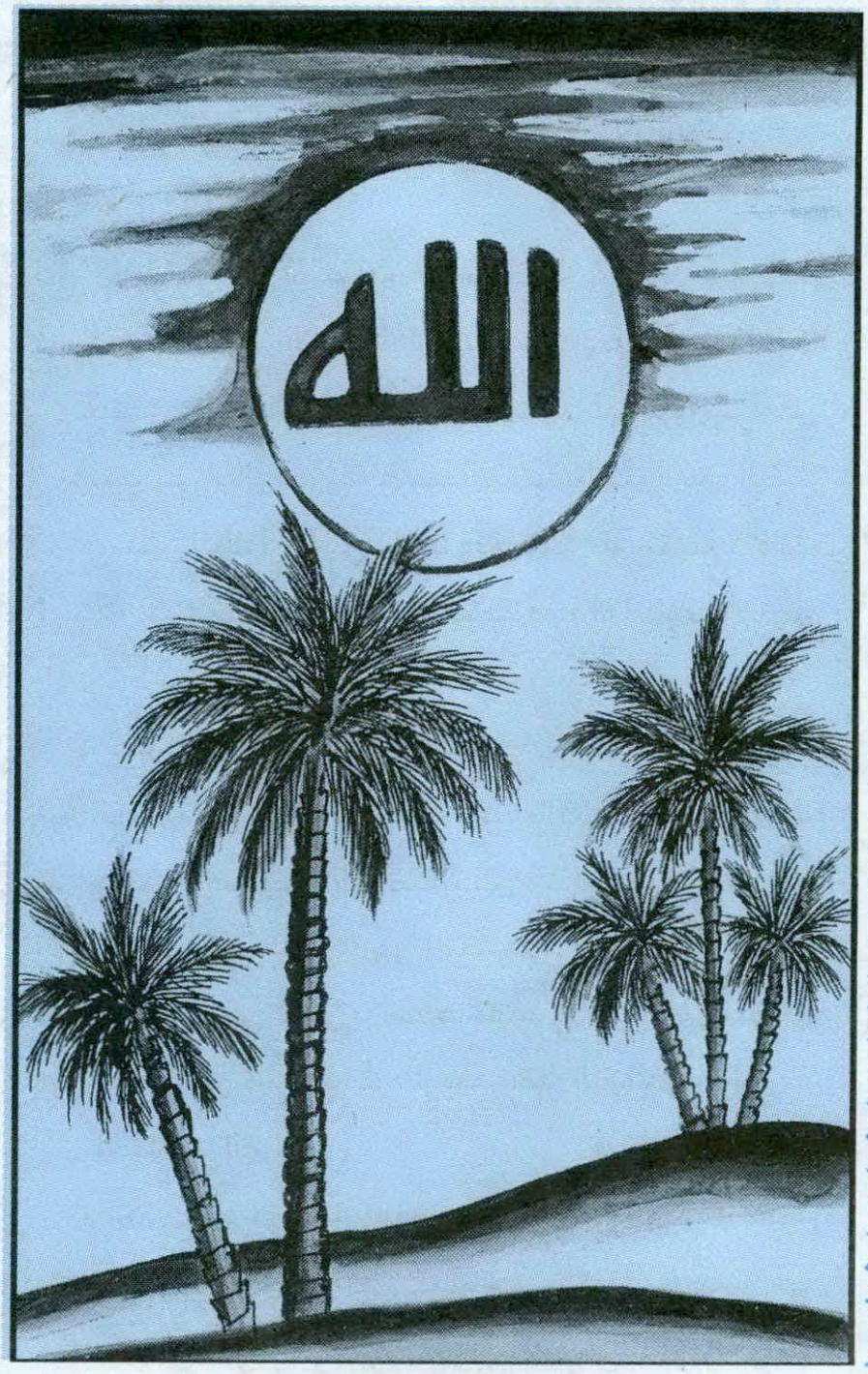
الله

- يا «أبا ذرّ» ألا تَجِيءُ مَعَنَا نُصَلى عند الإله «مَنَاة»؟!

أجاب «أبو ذرّ»: كيفَ أُصَلى لِحَجَرٍ لا يُحسُّ ولاينْطِقْ ؟!

قَالَ أنيس: إنه إلهنا!!

قال «أبو ذرّ»: إنه إلهكُم أنتم لاَ إلهى أنا !!

قَالَ أخُوه هامِسًا:لاترفعْ صَوْتَكَ يا «أبا ذرّ» بِهذَا الكَلاَم فيشعرونَ بأَننا خَارِجينَ عَنْ عَقِيدتهم فينْقَلبُوا شرًّا عَلينا، فينبذنَا رجالُ القبيلةِ وربمَا ألْحَقُوا بِنَا كثيرًا مِنَ الضَّرَر.. أتوسلُ إليكَ أنْ تَجِيءَ مَعَنَا ولَوْ كُنْتَ غيرَ مُقْتنعٍ بمَا نفعَلُ حَتّى لايشعرَ بِنَا أحدٌ منَ القبيلةِ فَهُم أَهلنا ونحنُ منهم.

❋❋❋

لَمْ يَشَأْ «أبوذَرّ» أنْ يُغضبَ أخَاه، فخرجَ معهم إلى مَكَّةَ مُكْرَهًا فوصلُوهَا بعد يومَيْنْ.. فنحرُوا الإبلَ والذبائحَ تقرُّبًا لـ«مَنَاة» سَاجِدينَ مُتَضَرِّعينَ إليه مُتقربينَ مُتَذللين أنْ يُرسلَ عَلَيْهم المطَر.. ولمْ يكُن «أبوذَرّ» من المتضرِعينَ أمامَ الصَنم «مَنَاة»!! لقد اختبأ فى رُكنٍ قَصِىٍّ يرقبُ حرَكَاتهم ويسْخرُ منْ عَقِيدتهم، وفِى هَدْأةِ اللَيلِ قامَ «أبو ذَرّ» ووقفَ أمامَ الصَنَم وَقَالَ له:

- أَحَقًّا إنكَ إله ؟!

ثُمَ أمسكَ بحجَرٍ كبيرٍ وقذفَ به فى وجْهِه.. ووقَفَ «أبوذَرٍّ» ينتظرُ أنْ يُدَافعَ عنْ نفسِه أو حَتّى يشعرَ بلطْمَةِ الحجر، ولكنه ظلَّ عَلى جُمُوده وسُكُونه، فانفجرَ «أبوذَرٍّ» يضحكُ

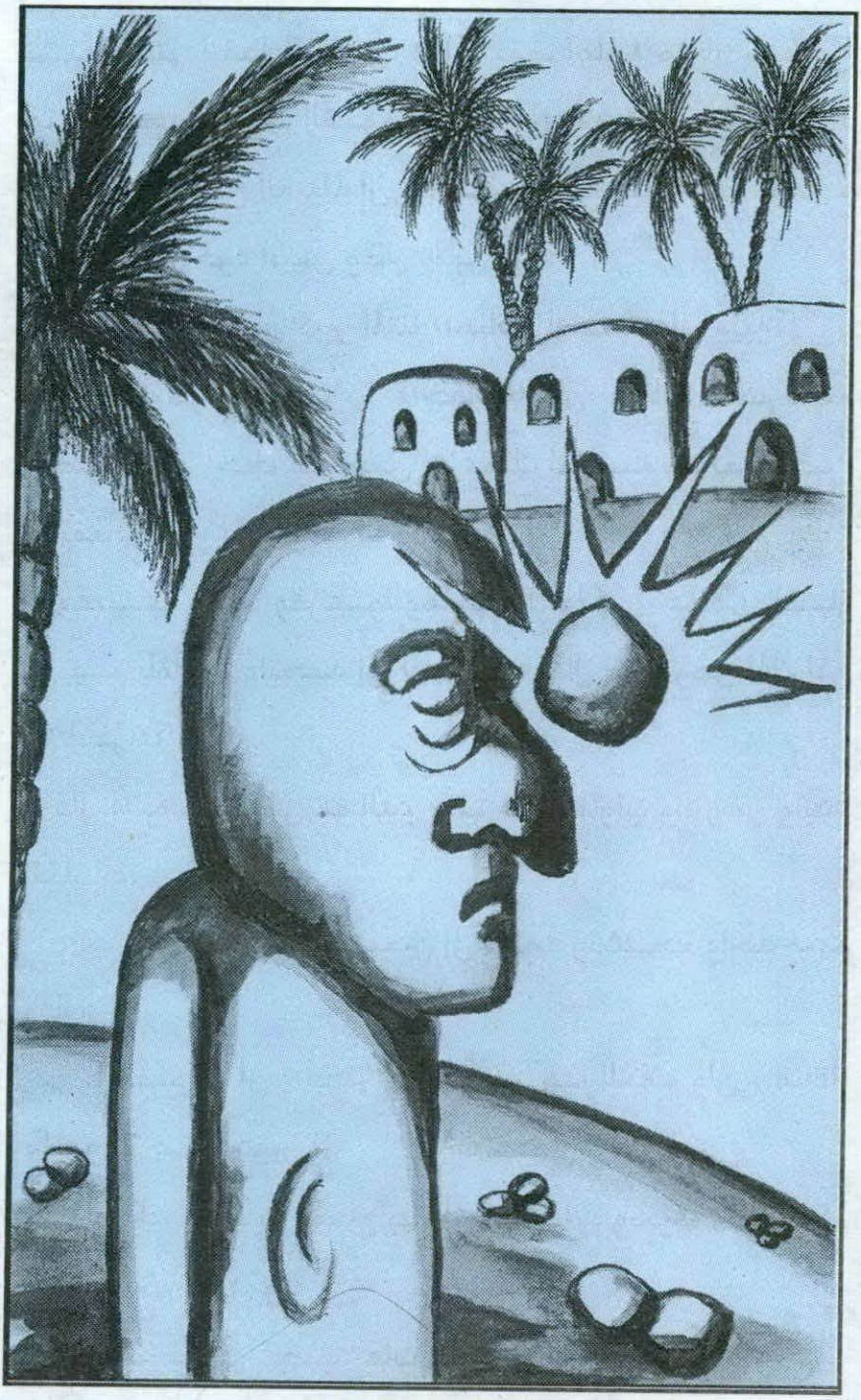

بشِـدَةٍ حَتَّى أيقظَ النائِمِينَ، فَرَأوْهُ يقفُ أمامَ «مناة» سَـاخِرًا منـه مُتحديًا، عرفَ القـومُ أنَّ «أبا ذَرٍّ» لايعتنِـقُ دِينهم فأرَادَ «خِفَاف» شـيخُ القبيلةِ أنْ يُعَاتبـه، فجمعَ كبارَ القومِ، ومنهم «أبو ذَرٍّ» وأخوه أنيس وقال «لأَبِى ذَرٍّ»:

- إنكَ تسخرُ منْ كبيرِ آلهتنَا «مناة» أفلسْتَ عَلى دِينِهِ؟

قَالَ «أبو ذَرٍّ»: أى دينٍ يَا «خِفاف»؟ إنَ «مناة» إلهكم مَاهو إلاَصنمُ مِـنَ الحجرِ لا يحسُّ ولا يملكُ لنفسِـه ولا لغيره ضَرًّا ولانفْعًا!!

وغضـبَ القومُ وفزعُـوا وهَاجُـوا!! ولكنَ «خفاف» أشـارَ عَليهـم بالهدُوء، واتجـهَ إلى «أبى ذَرٍّ» وقال لـه: ومَنْ إلهكَ إذَن يا «أباذَرٍّ»؟

قال «أبو ذَرٍّ»: إلهى هو الذِى خَلَقَ السـماواتِ والأرضَ وأبدعَ الكائناتِ.

واسـتراحَ بعضُ المُجْتمعينَ إلى كَلاَمه وتشـجعَ واحدٌ مِنْهُم وقَالَ:

- يا قَـوْم . . إنَ «أبا ذَرٍّ» مُحِقٌ فى هذَا الكلاَم وأنَ «مناة» مَا هُو إلا صنمٌ حَقِير !!

فهاجَ الجميعُ عليه فصَاح بِهِم أنِ اهْدَءُوا. . وسوفَ أحْكى لكم ما حدثَ ثم احْكُمُوا.

قَالَ الجميعُ فى غَضَبٍ: هَاتِ مَا عِنْدَكَ .

فقالَ الرجُل: ذهبتُ بنفْسِـى إلى ‹‹مَنَـاة›› وقدمتُ له لبنًا فى جَفْنَـةٍ ‹‹القصعة›› ثُم تركْتُهُ وابْتَعَـدتُ عنه.. وبعدَ دقائقَ جاءَ كلـبٌ فلعقَ اللَّبن منَ الجَفْنة!! ثـم رفعَ إحْدى رِجْليه وبالَ عَلى الصَنم.. وانتظرتُ مِنْ ‹‹مناه›› أنْ يدافعَ عنْ نفسِه ولكنه ظلَّ سَاكنًا لاينطِقُ ولاَ يتحَرَّك !!

فَصَمَتَ الجميعُ وانصرَفُوا عَائدينَ إلى خِيَامهم.. ثم رحَلُوا إلى دِيَارِهم فلمْ يَجِدُوا مطَرًا قدْ هَطَل .

***

كان ‹‹أَبو ذَرٍّ›› يجتمعُ برجالِ قَبيلته ويُحدثهم عَنْ عَقِيدتهم، ويُسَـفهُ آرَاءَهم، ويحتقرُ آلهتهُمْ وعَقِيدتهم الفاسِدَة، ويقولُ لهم: انظرُوا إلى السـماواتِ ومَا فِيهَا منْ نجومٍ وأفلاكٍ، وإلى الشـمسِ كيفَ تشرقُ فَتَعْمرُ الكونَ بنورهَا الساطع، والقمرُ كيفَ يبتدئُ صغيرًا ثم يكبرُ فينيرُ لياليَنا بنُورِه الوَضَّاء ثُم يَصْغر وهكَذَا كل شـهرٍ.. انظرُوا إلى الأمطارِ التِى تهبطُ علينَا من السماءِ وفيهَا الرزقُ والخيرُ الكَثِـير.. انظُرُوا إلى البحار والجبالِ والليلِ والنهارِ والزرُوعِ والثمارِ والوردِ والأزهَار والطيرِ والحيوانِ والإنسانِ كُلُّ هَذِه المخلوقاتِ مَـنْ خَلَقها؟؟؟... إنه الله القديـرُ المقتدرُ الذِى يُحْيِى وَيُمِيت.

صَاح أحدُهُم يَسْـأل: إننَا نَرى آلهتنَا أمَامنا مُصَوَّرةً فى اللاَّتِ والعُزَّى ومَنَاةَ وهُبَل، ولكننَا لا نَرَى الإله الذِى تحدثنَا عنه.

قَال «أبو ذَرٍّ»: إنَ الإله عَظِيمٌ، إنَّهُ ملء الزمانِ والمكَانِ!! فَهُوَ يَرَانا ولكننَا لا نَرَاه.

***

أصبـحَ «لأبى ذَرٍّ» مكانةً عاليةً بينَ قومهِ، يحْظَى بالاحترامِ والتَقْدير فكانَ مُعَلمهم وهَادِيهم إلى الحقِّ والصَّوَاب.. وذاتَ يومٍ أقبـلَ عليهم رجلٌ غريبٌ فرحَّبُوا به كعادةِ العربِ، وفى المسَـاءِ جَلَسَ «أبو ذَرٍّ» ورجالُ القبيلةِ ليرحَّبُوا بالضيفِ وسَأله «أبو ذَرٍّ»: منْ أيِ البلادَ أنت ؟

قَال الرجل: مِنْ مَكَّة..

فَسَأله «أبو ذَرٍّ»: ما أخبارُ مكَّةَ يا بنَ العم؟

قَـال الرجُـل: ظهرَ فيهَا رَجُـلٌ يزعُمُ أنه نبىٌ مـنْ عندِ الله، ويدْعُو إلى عبَادةِ إله وَاحِدٍ.

قَال أبو ذَرّ: ومَاذَا أيضًا ؟

قَال الرجُل: يقولُ إنَ الله واحدٌ لاَ شرِيكَ له، وأنَ الأصْنامَ التِى حولَ الكعبةِ مَا هِى إلاَ حِجَارةٌ صَمَّاء.

صَاحَ «أبو ذَرٍّ»: ومَاذَا قَالت قريش؟

قَالَ الرجُلُ: مِنْهم من آمنَ ومنْهُم منْ حَاربه وآذاه.

انشرحَ صدرُ «أبى ذَرّ» وسكنتْ نفسُه وهَدَأ قلْبُه وقَالَ:

- إنهَا واللهِ لَبُشْرَى انتظرْتهَا منذُ زمَنٍ بَعِيد.

وَهَب واقِفًا وهو يَصِيحُ: واللهِ لَنْ أبيتَ الليلةَ فِى دَارِى.

وأسرعَ فأعدَّ زَادَهُ ثم امْتَطَى راحِلَتَه، وسارَ يطْوِى الصَحراءَ ليلاً ونهارًا، حتَّى وصَلَ إلى مكةَ فِى فجرِ اليومِ الثَالث منْ رَحِيله، فدخلهَا مُتنكرًا حتَى لايعْرِفهُ أحد، وجلسَ طُولَ النهارِ فى الكعبةِ يسمعُ أخبارَ محمدٍ النبِى ﷺ الذِى بُعِثَ.. فسمعَ مَنْ يقولُ: إنه ساحرٌ، ومنهُم منْ يقولُ إنه مجْنون، ومَنْ يقولُ إنه شَاعر ومنْهُمْ منْ يقولُ إنه رسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله أرسَلَه بالهُدى.

***

لَمْ يشأ «أبوذَرٍّ» أنْ يسألَ أحدًا عَنْ محمد ﷺ بعد أنْ رأى ما يحدثُ لمنْ يسألُ عنه مِنَ الضّربِ والأذى.. لقد تحملَ مشَقَّةَ السفرِ وقطْع الصحراءِ، واجْتيازِ الفَيَافِى؛ ليقَابِلَهُ وهو لايُرِيدهم أنْ يمنعُوه عنه.. لقد كانَ قلبه يخفقُ شوقًا لرُؤْيته ولقَائِه.. واقترَبَ الليلُ و«أبو ذَرٍّ» مازالَ غارقًا فى أفكَارِه وأحْلامه برؤيةِ الرسول ﷺ .. ولمْ يفكرْ أينَ سيقْضِى ليْلَتَه.

دَخَل على بنُ أبى طالب رَضِىَ اللهُ عَنْهُ إلى الكعبةِ وَرَأى «أباذَرٍّ» مُنْطوِيًا عَلى نفْسِه فَسَأله: «كأَنَ الرجلَ غَرِيب»؟!

أَجَابه «أبو ذَرٍّ»: أَجَلْ.

فَقال على رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: انطَلِقْ مَعِى إلى المنْزِل.

فذهبَ «أبو ذرٍّ» مَعَه دون أنْ يسألَ أحدًا عَنْ محمد ﷺ خَشْيَةَ أنْ يكونَ منْ أعدائِهِ، وقَضَى لَيلته فى منْزِل على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقَضَى عَلِىٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له حَقَّ الضيافَةِ ثلاَثَةَ أيامٍ وَهُوَ يخرجُ كُلَّ يومٍ يتقصَّى أخبارَ محمدٍ ﷺ ليعرفَ مكانه دونَ أنْ يسألَ عنه أحدًا حتَى انقضَى نهارُ اليومِ الرابعِ وجاءَ الليلُ وهو مَازالَ فى الكعبةِ فمرَّ بِه على بنُ أبى طَالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له:

- ألمْ تعثُرْ لكَ عَلى منزِلٍ حَتَّى الآن؟

قَالَ «أبو ذرٍّ» : لا.

قَالَ على: انطلقْ مَعِى.

فانطلقَ معه «أبو ذرٍّ» فَسَأله على: ما أقدمكَ هذَا البلَد ؟

قال «أبو ذرٍّ»: هلْ تكتمُ أمرِى إنْ أخبرْتك؟

فقال على: سأفعلُ إنْ شاءَ الله واصْدُقنى القَوْل.

فقال «أبو ذرٍّ»: بلغنَا أنه خرجَ هُنَا رجلٌ يزعمُ أنه نبىٌّ فجئتُ إلى هُنَا لألقاه.

فَضَحِكَ على كَرَّم الله وجْهَه وقال:

- لقد اهتديتَ إلى الطريقِ وأرشَدَكَ إيمَانُكَ للحَق.. هذَا طَرِيقى فاتبعْنِى ، ادخلْ مِنْ حيثُ أدخلُ فإنى إنْ رَأَيْتُ أحدًا أَخَافه عليكَ حَاوَلْتُ منعَ الأَذَى عَنْك.

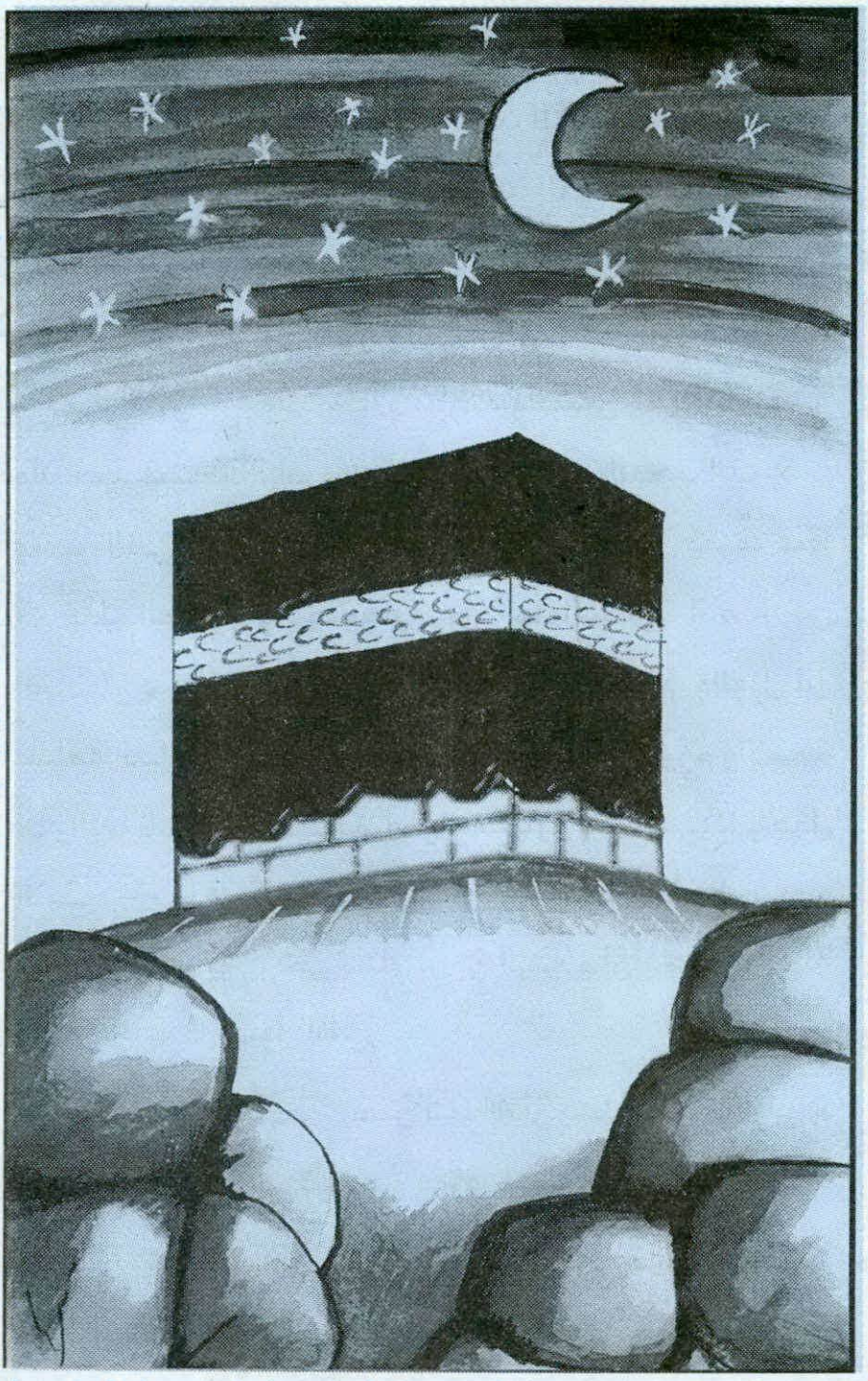

مضَى «أبو ذَرٍّ» خلفَ على وهو يشعرُ بالسرورِ يَشيعُ فى جنباتِ نفسهِ، فقد هَدَاه طَالِعُه السعيدُ إلى أقربِ المُقَرَّبِينَ إلى النبى ﷺ .

دَخَلاَ عَلى النبِى ﷺ فقال «أبو ذَرٍّ»: السَّلام عَليكم.

فقال النبِى ﷺ : وعليكم السلامُ ورحمةُ اللهِ وبركَاته.. من أنت ؟

فقال «أبو ذَرٍّ»: مِنْ غِفَار.. اعرِضْ عَلىَّ الإسْلاَم.

فَهَشَّ النبىُ ﷺ واتسعَتْ ابتسامتُه واكْتَسَى وجهه بالدهشَةِ والعجَب، فضحِك «أبو ذَرٍّ»، فهو يعرفُ سرَّ العجبِ الذِى كسَا وجْهَ النبى ﷺ حينَ عَلِمَ أنه منْ غِفَار.. وما كانَ يُعْرفُ عنهَا فى قَطْع الطرقِ واللُّصُوصيةِ، وأنَ أهلهَا مَضْرب الأمثالِ فى السَّطْوِ غيرِ المشروعِ، وأنهم حُلَفَاء الليلِ والظلامِ، والويلُ لمنْ يُسْلمه الليلُ إلى واحدٍ منْ قبيلَةِ غفار..أفيَجِىءُ اليوم والإسلامُ ما زالَ دينًا غَضًّا مُسْتخفيا -واحدُ منهم ليسلَم؟؟!! وجعل النبى ﷺ يرفعُ بَصَره فيه ويُصوبه تعجبًا لِمَا كانَ منْ غِفَار ثُمَ قال: إنَ الله يهْدِى منْ يشَاء!!.. إنَ الإسلامَ أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلاَالله وأنَ محمدًا رسولُ الله.

وكان«أبو ذَرٍّ» رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ممَّنْ شاءَ الله أنْ يسلمُوا حيثُ أرادَ الله بهِ الخير، فأسلمَ «أبو ذَرٍّ» مِنْ فوره، حيثُ كَان إسْلاَمه مُبَكِرًا.

سأل «أبو ذَرٍّ» رَضِىَ اللهُ عَنْهُ النبىَ ﷺ بعد إسْلامه: بماذا تأمرُنِى يَارسول الله؟

قــال النبىَ ﷺ : يا أبا ذر اكتمْ هذَا الأمرَ وارجِعْ إلى بلدكَ فإذا بَلَغكَ ظُهورنَا فأقبلْ .

فقال ((أَبــو ذَرٍّ)): والذِى نفسِــى بيده، لا أرجــعُ حتى أصرخَ بالإسلامِ فى الكَعْبَة.

كان على أبى ذرّ أنْ يتسلَّلَ مُغادرًا مكةَ عائدًا إلى قومِهِ يحملُ إيمَانه بينَ جَنْبيه.. ولكنه ((جُنْدُب بنُ جَنَادَة)) الذِى يحملُ قلْبًا جيَّاشًــا بالحقِ ونَفْسًــا فَوَّارَةً بالتمرُّدِ عَلى الباطلِ، صَحِيحٌ أنه يعلــمُ أنَ النبىَ ﷺ مَازالَ يهمسُ بدعْوَته همسًــا فى تلكَ الأيام ولكنْ لابدَّ له مِنْ صيحَةٍ يَصِيحُهَا.

***

أسرعَ ((أَبــو ذَرٍّ)) إلى الكعبة وهناكَ نَادى بأعْلى صَوْته ((أشهد أنْ لاإله إلاَ الله وأشهدُ أنَ محمدًا رسولُ الله))كان صِيَاحه تحدِّيًا صَرِيحًا لكبريَاءِ قُريش وسَــادتها بعد أنْ صَكَّتْ أَسْــمَاعَهُم تلكَ الكلمَات التِى يُحاربونهَا ويكرهُونَ سمَاعها منْ أقربِ المقربين إليهــم.. فما بَالُك لو صَــدرت منْ رجلٍ غريبٍ ليسَ له فى مكَّةَ حَسَبٌ ولا نســبٌ ولاحِمَى.. وأحاطَ به المشــركُون وكانَ يتوقع ذلك فَضَربُوه حتَى ســالَ الدمُ من أنفِهِ ووجْهِهِ وترامَى النبأُ إلى العباسّ عمّ النبى ﷺ فجَاءَه مُسْــرعًا.. وما استطاعَ أنْ ينقذَه منْ بينِ أنيابِهم إلا بالحِيلة الذكيةِ حيثُ قال:

- يا معشَــرَ قُريشٍ.. أنتم تُجَّار.. وطَرِيقكم عَلى غِفَار وهذَا الرجــلُ منها.. إنْ يُحرِضْ قومَه عليْكُم يقْطَعُوا عَلى قوافِلِكُم الطَّرِيق . .

فثَابُوا إلى رُشْــدهم وتركُوه.. ولكنَّ «أَبا ذَرٍّ» كانَ قد ذَاقَ حَلاَوةَ الأذى فى سَبِيل الله، ولايريدُ أنْ يغادرَ مَكَّةَ حتَى يَظْفرَ مِنْ طَيباتِه بمَزِيد.. فيعودَ فِى اليوم الثانِى ويلْتقى بامرأَتيْنِ تطوفانِ بصَنميْنِ «أَسافٍ» و«نائلة» فيسرعُ ويســفهُ الصَّنمين، فتصرخُ المرأَتَانِ ويتجمعُ الرجالُ ويضْربُونه حتى يُغْشَى عليه.. ويفيقُ، فيصرخُ مرَّةً أُخرى بأنه يشهد أنْ لا إله إلاَ الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله.

***

رجعَ «أَبو ذَرٍّ» إلى أَهْله وعَشِيرته وقَلْبه مُمْتلىءٌ بالإيمانِ، وعَلى وجْهه إشرَاقةُ النُّورِ، وحينَ دخلَ عَلى أَخِيه أنيس: راحَ ينطقُ بالشَّهادتين.

فهتَفَ أنيس: وأنا مثلكَ عَلى دين محمد ﷺ يا أخى.

وصَاحت أمه: وأنا كذلكَ يَا«أَبا ذَرٍّ»وأُشهدُ الله أننى قَدْ أَسْلمت.

وانتشرَ الخبرُ فِى القبيلةِ،فاجتمعَ فى دار«أَبى ذَرٍّ»رجالُ القبيلة وقَالُوا له: حدثنا يَا«أَبا ذَرٍّ» عنِ الدينِ الجديدِ وعَنْ محمد.

فقــال: إنَّ هذَ الديــنَ يدعُو إلى عبادةِ إله واحدٍ لاَشــريكَ له، يطهــرُ النفوسَ والقلــوبَ ويدعُو إلى الحــبِ والتعاطفِ والعدلِ

والمسَاواةِ والسَلام ومحُو الظلماتِ والضَلالةَ، وينشرُ أنوارَ الخيرِ والرَّشَاد.

استمعَتِ القبيلةُ إلى كلماتهِ الوضَّاءةِ الَتِى خرجتْ منْ قلبِ «أَبى ذَرٍّ» العامرِ بالإيمان فَدَخَلت إلى قُلُوبهم كالضوءِ المنيرِ تهدى عقُولهم إلى نُور الإسلامِ فَأَسلَمُوا واحدًا بعد وَاحدٍ، حتَى لَمْ يَبْقَ منَ القبيلةِ أَحَدٌ لم يدخُل الإسْلام، ولايكَتفى«أَبو ذَرٍّ»بقبيلتِه بل ذهبَ إلى قبيلةِ «أَسلَم» فأوقدَ فيهَا مصابيحَ الهُدَى، فَتَدْخُل كلُّهَا فى الإسْلاَم.

وعلم الرسول ﷺ بإسلامِ قَبيلةِ غَفَار، فذهبَ إليهَا بصحبةِ صَدِيقه أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأستقبلته القبيلةُ بالأفراحِ والغناءِ، وصافحَ رسول الله ﷺ «أَبا ذَرٍّ» وهو يقول: إنكَ صَاحِبى يَا أَبا ذَرّ.

وتمرُ الأيامُ ويهاجرُ النبىّ ﷺ إلى «يثرب» المدينة المنورة ويعلمُ أبوذرٍ بذلكَ فيرحَل بقبيلَة «غِفَار» وقبيلة «أَسْلَم» إلى هناكَ وتستقبلُ المدينةُ صفوفًا طويلةً من المشَاة الذينَ جَاءُوا سيرًا لمقابلةِ النبىَ ﷺ ولولاَ تَكْبِيرهم؛ لحَسِبهُم منْ رآهم أنه أمَامَ جيشٍ جَرَّارٍ منَ المشركينَ.. وَقَدْ أَمَّمَ الركْبُ صوبَ مسْجدِ النبىَ ﷺ شيوخًا ورجَالاً ونساءً وشبابًا وأطفَالاً.. ابتهج الرسول ﷺ حينَ رآهم، وظهرتْ عَلى مُحَيَّاه الكريم علاماتُ الغبْطَةِ والوُدِ، ونظرَ إلى قبيلةِ غِفَار وقال: غِفَار.. غَفَرَ الله لها..

ثم نظرَ إلى قبيلة «أسلم» وَقال ﷺ :

- أسلم .. سَالمها الله .

ثم نظرَ إلى أَبى ذَرّ وقال: ما أقلتِ الغَبْرَاءُ، ولاَأظلَتِ الخَضْراءُ أصْدَقَ لهجةً مِنْ أبى ذر .

***

عَاشَ «أَبــو ذَرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بجانبِ النبــى ﷺ يكافحُ ويناضلُ معه؛ لإعلاءِ كلمةِ الإســلامِ بينَ القبائــل العربيَة.. كانَ ينامُ فى المســجدِ ويُصَلى ورَاءَ النبىَ ﷺ مَعَ الصحابةِ والتَابعينَ، ويجلسُ فيستمعُ إلى أحَادِيثِهِ وإرْشَــادَاتِهِ، ويتعلمُ منه فضائلَ الشريعةِ والسُــنةِ وحُسْــنِ الصُحْبة ومكارمِ الأخلاَق، وبفضْلِ صُحْبته للنبىَ ﷺ أصبــحَ أَبــو ذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عالمًــا وفَقِيهًا ومُحَدثًــا بَارِعًا وتقيًــا وَرِعًا وزَاهدًا فى الدنيا ومَبَاهــجِ الحَيَاة.. لهذَا أَطلقَ عليه الصحابةُ والتَّابعُونَ: العالمَ الزَاهدِ.. صَاحِبَ رسُولِ الله ﷺ .

لقدأحس الرسُولِ ﷺ بالمتاعب التى سيتعرض لها أَبوذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فكانَ يأمُرُه دائمًا أنْ يجعلَ الأناةَ والصبرَ مَنْهجه فِى سَبِيل الله.. وذاتَ يومٍ سَأله الرسُولِ ﷺ قائلاً:

- يا«أبا ذَرٍّ» كيف أنتَ إذا أدرككَ أمراءٌ يستأْثِرُون بالفَىْء؟؟

فقال «أَبــو ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : إذًا والذِى بعثــكَ بالحَقِ لأَضْرِبَنَّ بسَيْفِى!!..

فقال الرسُولِ ﷺ : أفلاَ أدلكَ على خيرٍ منْ ذلك..؟ اصْبِرْ حتى تَلْقَانِى.

وفيمَا بعد، أصبحتْ نصيحةُ النبى ﷺ «لأبى ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هى نِبْرَاسُ حَيَاته، حفظهَا وعَمِلَ بهَا على مَدَى سنينَ حياته التِى عَاشها بَعْدَ ذلك.. فَمَا حملَ سَيْفًا فِى وجُوهِ مَنْ يستأثِرونَ بأموالِ المسْلمينَ؛ بل أَطْلقَ لسَانه البتَّارَ فِى وُجُوههم.

***

عَلِمَ النبىّ ﷺ أنَ ملكَ الروم يجهزُ جيشًا عظيمًا للهجومِ على المدينةِ المنوّرة، فأمرَ النبىّ ﷺ بتجهيزِ جيشٍ لملاَقَاةِ الروم.. فاستعدَ كلُ مسلمٍ بسلاَحه وفَرَسِه أو نَاقته، وتولّى عثمانُ بنُ عفان تجهيزَ جيشِ المسْلمينَ من مَاله الخَاصّ وعَلِمَ «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمرِ خروجِ جيشِ المسلمينَ لمحاربَةِ الروم، وأرادَ أنْ يلحقَ به، ولكنْ كيفَ يشترِكُ فى هذه الغزوةِ وليسَ لديْهِ إلاَ نَاقَة ضَعِيفة لاتقوَى عَلى السيرِ فى الصحراءِ، ناهيكَ مَا تتطلبهُ الحروبُ مِنْ كَرٍّ وفَرٍّ.. ولكنه لمْ يتردّدْ ولمْ يمنعْهُ ذلكَ مِنْ أنْ يمتطِى رَاحِلَتَهُ الضعيفةَ ليلحقَ بالجيشِ وليحاربَ معَ جيشِ المسْلمينَ.. ويسير «أبوذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحتَ شمسِ الصحراءِ ولهيبهَا.. ولم تتحمل الناقةُ السيرَ مسافةً طويلةً فبرَكَت فى الطريقِ ولم تَسْتطِعْ الحركةَ، وعَزَّ عَلى «أبى ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ يتخلّفَ عَنِ الجيشِ

فحملَ أمتعَتَه وسَارَ فِى جَحِيم الحرِ وهو يُقَاسِى منَ التعبِ والعطشِ، وكانَ الجيشُ قد سَبقه بمسافةٍ كبيرةٍ.. وقال قومٌ لرسولِ الله ﷺ: لقد تخلّفَ «أبو ذَرٍّ» عَنِ الجِهَاد.

فأجَابهم رسُول الله ﷺ: كَلاَّ!!.. لم يتخلف عَنَّا «أبو ذَرٍّ» إنَّ فى قلبهِ منْ حرارةِ الإيمانِ مَا هو أقوى مْن حرارةِ الصَحراءِ ولَهِيبهَا!!

ويصلُ «أبو ذَرٍّ» ويراهُ بعضُ الجنودِ مِنْ بعيدٍ يَمْشِى فَوْقَ الرمَال.

فقالُوا لرسُولِ الله ﷺ :هذا رجلٌ مقبلٌ علينَا يَارَسُولَ الله.

فقال النبى ﷺ:اطمئِنُّوا.. إنه «أبو ذَرٍّ» يَرْحَمُهُ الله.. يمْشِى وحْدَهُ وَيمُوتُ وْحدَه.. ويُبْعثُ وحْدَه!!

وقَامَ الرسُولِ ﷺ فأخذَ بيدِ «أبى ذَرٍّ» وسَاعده فى حَمْلِ أمتِعتِهِ وقال له:

- لقد غفرَ الله لك يَا «أبا ذَرٍّ» بكل خطوةٍ ذنبًا إلى أنْ لَقِيتَنِى .

***

وحينَ تُوُفى النبىّ ﷺ اجتمعَ المسلمونَ يتشاورُون، ثم اختَاروا أبا بكر الصّدِيق رَضِىَ اللهُ عَنْهُ خَليفةً للمسْلمين، وظَلَّ«أبوذَرٍّ» رَضِىَ اللهُ عَنْهُ معَ أبى بكر الصّدِيق رَضِىَ اللهُ عَنْهُ.. ينصرُ الدينَ ويجاهِدُ فى سبيلِ إعلاءِ كلمة الله، فحاربَ فِى الغزوَات ضِدَّ المْرْتَدِينَ وعَمِل بِسُنّة النبى ﷺ، وسارَ على منهَجِه

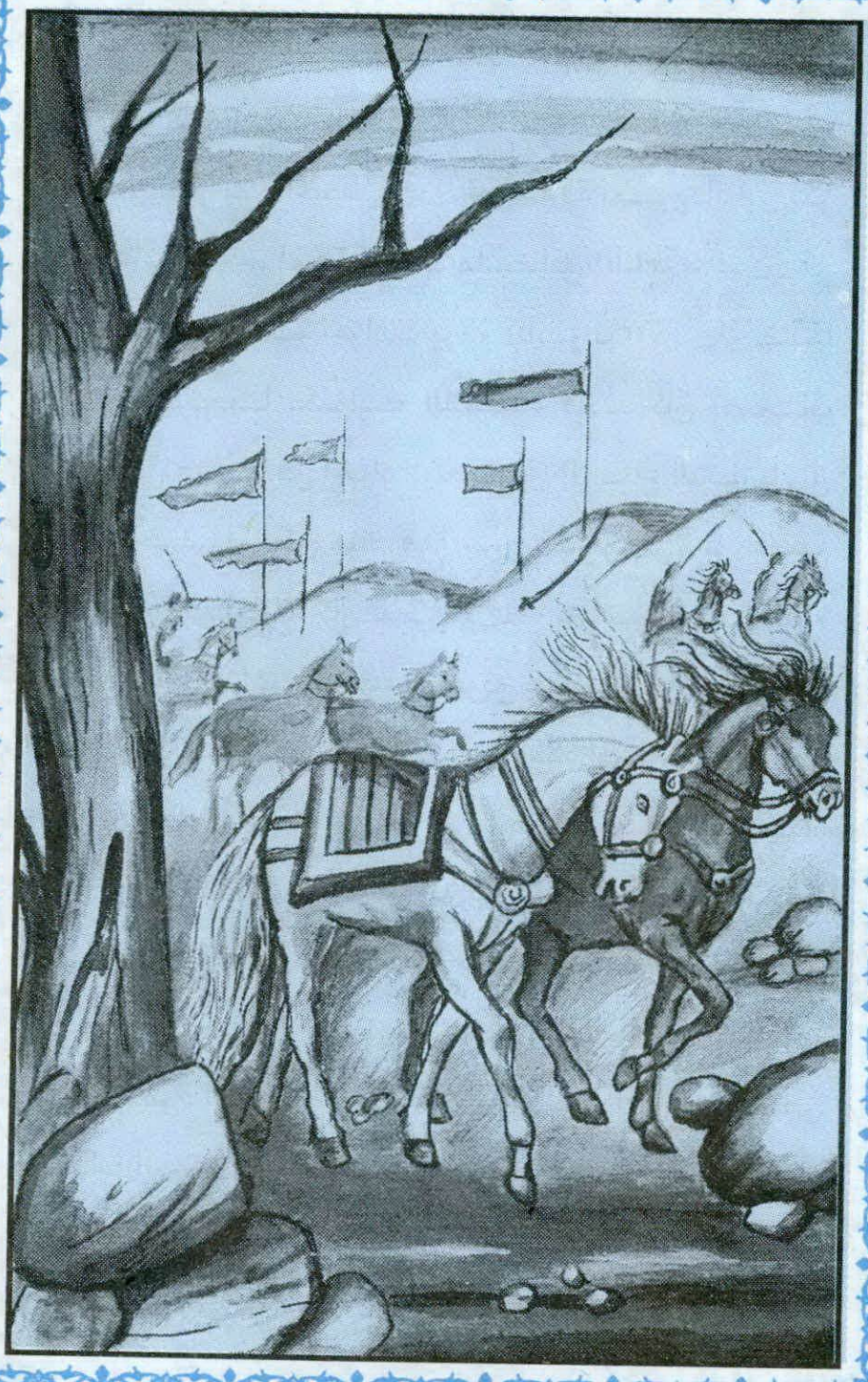

وهُداه، وتزوجَ «أبا ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ورَزَقه الله بنتًا، ثم رحَلَ بأهلِهِ إلى الشَّام.

وتولَى عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخلافةَ بعد وفاة أبى بكر الصّدِيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لَمْ يكنْ هناكَ ما يُضَايق «أبا ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. فلم يكنْ هناكَ ثَمة انحرَافات يرفعُ «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضدّهَا صَوْته ويلفحهَا بكلمَاتِه اللاَّهبَة، فقد كانَ أصحابُ النبى ﷺ زَاهدينَ فى الحياةِ لاينظرونَ إلى مَتَاع الدنيا، بل إلى أجرِ الآخرة.. لمْ يكنْ هناك فرق بين فقير وغنى.. بل الجَميع متَسَاوونَ فِى الحياةِ. كانَ عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحاسبُ الولاةَ والحكامَ حسابًا عَسِيرًا إذا اغتَنَى أحَدُهم بطَريقٍ غيرِ مشْروعٍ. وطَال عهدُ أميرِ المؤمنين عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فارِضًا على وُلاَة المسلمينَ وأمرَائهم وأغْنِيائهم فى كلِ مكانٍ منَ الأرضِ زهدا وتقشُّفًا وعدْلاً يكادُ يكونُ فوقَ طاقةِ البشَر.. حتى أنه كانَ إذا سمعَ أنَّ أحدَ وُلاته فى الشامِ أو فى العراقِ أو فى مصرَ أو أيِ مكانٍ فى أرض الخلافة قد أكلَ نوعًا مِنَ الحَلْوى لايقدرُ عامةُ الشعبِ عَلى شرائه، تَصْدُرُ أوامرُهُ الصارمةُ باسْتدعَاء ذلكَ الوالِي إلى المدينةِ ليلقى حِسَابه العَسِير.. لهذا كله استراحَ «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعَيشه فى عُهُودِ أصحابِ الرسول الأوفياءِ الأتقِيَاء، فلمْ يستعملْ لسَانَهُ فى النَهْيِ عَنِ المنكرِ، وتفرَغَ لعبادةِ رَبه والجِهَادِ فى سَبيله.

وتُوفى عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختارَ المسلمونَ عثمانَ بنَ عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفةً للمسْلمين، وتستمرُ الفتوحُ الإسْلاَمية، ويعلُو معهَا مَدُّ الرغباتِ والتطلعِ إلى مَنَاعِم الحياةِ وترفهَا، ويشعرُ «أبوذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخَطَر.. إنَّ زُخرفَ الحياةِ الباطلِ وغرورهَا يوشكُ أن يفتنَ الناسَ عَنِ الأَعمالِ الصَالحات.. إنَّ المالَ الذِى كانَ خادمًا للبشريَة يُوشكُ أنْ يتحولَ إلى سيدٍ مُستبدٍ بالمسْلمينَ معَ نَفرٍ منْ أصحَابِ محمد ﷺ الذِى ماتَ ودِرْعه مرْهُونة، وأكوَام الفَىء والغَنَائم فِى بيت المال!!

وفى عَهد عثمانُ بنُ عَفَان تَغيرت الأمورُ والأوضاعُ، وتدفقت الأموالُ من البلاد المفتوحَة، وأصبحَ هناكَ بينَ المسلمينَ طبقاتٌ غنيةٌ تكنِزُ المَالَ وتبنِى القُصورَ، وعاشُوا كالأمرَاء، وظهرت بِجَانبهم طبقةٌ لا تجدُ القوتَ، والمَأوَى.. لقدَ تغيرَت الحياةُ فى عَهْده.. تغيرَت كثيرًا وأصبحَ لها طابعٌ اجتماعىٌ لم يكن مَعْرُوفًا فى عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، ورأى «أبوذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو فى الشَّامِ تَرَفَ الأغنياء وإسرَافهم فى الإنفاقِ على طَيِّبَاتِ الحَيَاةِ، وبِجَانبهم الفقراءُ عَاجِزينَ عَنِ التمتعِ بلذَّةِ الحيَاةِ ونعيمهَا، تألَّمَ «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منْ هذِه الحَالة، فمدَّ يمينَه إلى سَيْفه يهزُّه ويقطعُ به الهواءَ، ثم نهضَ قائمًا يواجِهُ المجتمعَ

بسـيْفه الذِى طالمَا دَافَعَ بـه عَنِ الحق.. ولكن سُـرعانَ ما تذكَرَ وصيةَ النبى ﷺ ، فأعادَ السـيفَ إلى غِمْده، فما ينبغِى أنْ يرفَعَه فى وجْهِ مُسْـلم.. فراحَ يعقدُ المجالسَ فى المسـاجِدِ، ويخطبُ فِى الناسِ وَيَنْهى الأغنياءَ عن جَمْعِ الثروَاتِ الطَائلةِ ويدْفَعهم ويحُثهم عَلى إنفَاقِهَا فِى سَبِيل الله وعَمَلِ الخيرَات، وخرجَ بِكلمته الصَادقةِ إلى الأمرَاءِ والأغنياءِ وجَميعِ الذينَ أصبحُوا يُشكلونَ بركُونهم إلى الدنيَـا خطرًا على الدينِ الذِى جَاء هَادِيًـا للنورِ لاجَابيًا للأموَالِ، ورحمـةً لا عذابًا، وتواضعًا لااسْـتِعْلاءً، وتكافُـلاً لاتمايزًا، وقناعةً لاجشـعًا، وكفايةً لاترفًـا.. ذهبَ «أبـو ذرٍّ» رَضِىَ اللهُ عَنْهُ إلى معاقِل السـلطةِ والثروةِ يغزوهَا مُعَارضًا، وأصبـحَ فى أيامٍ مَعْدوداتٍ الرايةُ التِى التـفَّ حولهَا الصَالحونَ والكادحـونَ والمظلُومونَ، وأصبحَ لايمرُ بأرضٍ ولايبلغُ اسمُه قومًا إلا أثار تساؤلاتٍ هَامة تهدِدُ مصالحَ ذَوِى السلطةِ والثراء. وجعلَ له نشيدًا يرددهُ أينمَا سَارَ بكلماتٍ منْ نارٍ (بَشِرِ الكَانزِينَ.. الَذِينَ يَكْنِزُونَ الذَهَبَ والفِضَةَ بمَكَاوٍ مِنْ نَارٍ تُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وجُنُوبُهُم وظُهُورهم يَوْمَ القِيَامَة) حينَ رأى الثرواتِ تتركزُ وتُحتكرُ والسُـلطةُ استِعْلاءً واسْتِغلالاً، ورأى حبَ الدنيا يطْغى ويوشكُ أن يطمرَ كلَ ماصَنَعته سنواتُ الرسَالةِ العظْمى مِنْ إخلاَصٍ وتَفَانٍ فِى سَبِيلِ الله.

***

وَبَدَأَ «أبـو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأكثر تلكَ المعاقلِ رَهبة.. هناكَ فى الشَـام حيثُ معاوية بنُ أبى سـفيان يحكُمُ أرضًـا منْ أكثرِ بلادِ الإسـلامِ خُصُوبـةً وخيرًا وضياعًـا وقُصورًا، والثـرواتُ تفتنُ البقيةَ الباقيةَ من حَمَلةِ الدَعوة.. فكانَ أينمَا حَلَّ يلتفُّ الناسُ حولَه يسـتقبلُوه فى حَماسٍ وشَـوْق.. يطلُبُون منه الحديثَ.. ولاَيَـرَى فيهم «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سِـوَى البسـطَاءَ، مِنَ الناسِ ذوِى الحَاجة فَيرْنُو نحو مَشَـارفِ البلد، فيرى القصورَ والضياعَ فيصرخُ فيهم قائِـلاً: «عَجِبتُ لمَنْ لا يجدُ القوتَ فى بيتهِ كيفَ لايخرجُ على الناسِ شَاهِرًا سَيْفَه؟؟!» .

ثُمَّ يتذكَّر وصيةَ رسُـولِ الله ﷺ أنْ يضعَ الأَنَاةَ مكَانَ الانقلاب والصبر والكلمة الشّـجَاعة مكانَ السـيفِ فيـترك لغةَ الحربِ ويعودَ إلى لغةِ المنطقِ والإقناعِ، فيعلِّمَ الناسَ أنهم جميعًا سَوَاسيةً كأسـنانِ المشطِ وأنهم جميعًا سَوَاء فى الرزْقِ وأن لا فضلَ لأحدٍ علـى أحدٍ إلاَ بالتقْوَى، وأنَّ أميرَ القومِ وَوَليهم هو أولُ منْ يجوعُ إذَا جَاعُوا وآخِرُ منْ يشـبعُ إذا شـبعُوا.. كان هَدَفُه أنْ يخلُقَ رَأيًا عَامًّا فِى البلادِ يَحُولُ دونَ ظهورِ طبقاتٍ مُستغلةٍ للحكمِ أومُحْتكرةٍ للثروةِ وصَارت كلماتُه حَديثَ المجَالسِ والمنتديَات.. وانتشرَتِ أخبارُ «أبىذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى البلادِ فأقبلَ الفقراءُ من كلِ صَوْبٍ يشكُونَ أحوَالهم وسُوءَ مَعِيشتهم،ويسْتَقْبِلُهم «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويخطبُ

فيهم ويهددُ الأغنياءَ ويُخوفُهم من عذابِ الله فى الآخرة.. ويتأثر الفقراءُ بدعْوَته ودفَاعِه عنهم يأْتونَ إليه منْ جميعِ أنحَاءِ دَوْلةِ المسْلمين، حَتى يمتلِئَ المسجدُ والميادين ويستمِرّ «أبوذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى خطَابِه ضدّ الأغنياءِ يحملُ على الذينَ يجمعونَ الثرواتِ، ويشيّدُونَ القصورَ ويقتنونَ الضَيْعَات.. تأثر الفقراءُ بكلامِ «أبى ذَرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كثيرًا حتى ثَارُوا وهَاجُوا يُعلنونَ سُخْطهم وغضبهم على الأغنياءِ الذينَ لاينفقونَ بعضَ أمْوَالهم فى أعمالِ الخيرِ والبرِّ ومساعدةِ الضعفاءِ والفقرَاء.

***

شعرَ الأغنياء بخطَرِ مَا يقولُه «أبو ذَرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَليهم وكَانَ أكثرهُم منَ الوُلاَةِ والحكَّام، فبدأوا يرسلونَ إليه بالأموالِ والهدايَا فَيرْفضهَا.. كان هدفُ الأغنياءِ منْ هذِه الهدايَا أنْ يكُفَّ «أبو ذَرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنْ مُهَاجمته لَهم ويُوقف حَمْلته عَليهم.. ولكنَ هدَايَاهم لمْ تُوقفْ صَرَخات «أبى ذَرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ضِدّهم.. فقد كانَ هدفُه أنْ ينصفَ الأغنياءُ الفقراءَ فَيُعطونهمِ مِمَّا أعْطَاهم الله.. ولمْ يكُنْ هدفُه أنْ يُحَرِّمَ الغِنى على الناسِ، ولكنه كانَ يقصدُ -بمَا يقولُ - أنْ يُنبهَ الأغنياءَ إلى مَنْ حولَهُم منَ الفقراءِ، ومَا يجبُ عَلَيْهم أنْ يَقُومُوا بِه تِجَاهَهُمْ.

***

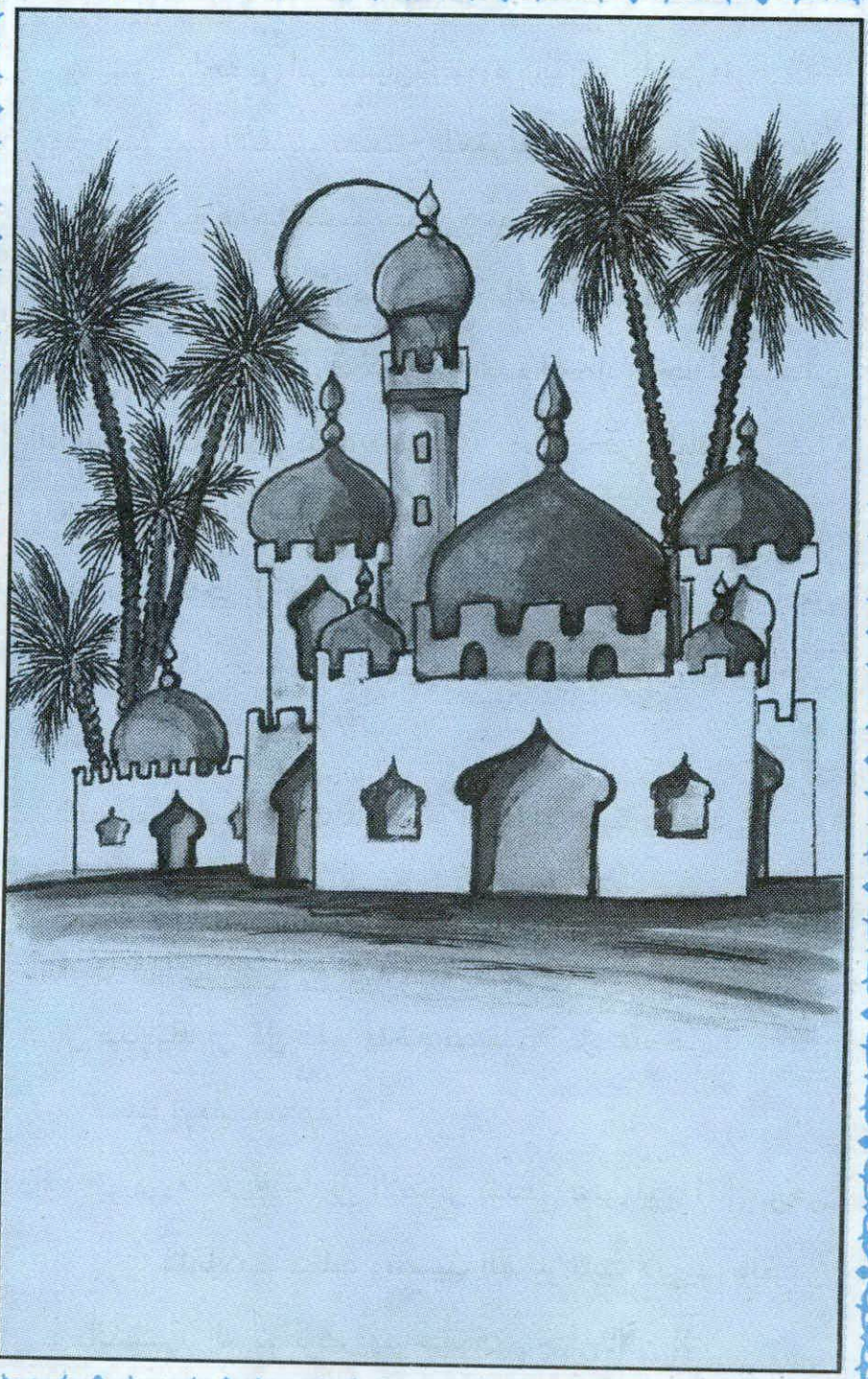

وشَـعَرَ معاويةُ بنُ أبى سفيان بخُطُورة مايُرَدِدُه «أبوذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووقُوفـه ضِدَّ الأغنياءِ لصَـالحِ الفقرَاء.. وخَـافَ أنْ تؤدى هَذِه الدعوةُ إلى ثورةٍ اجتماعيةٍ خطيرةٍ تفسدُ حُكْمه بالشَّام.. فكانَ لاينامُ الليلَ خوفًا وفزِعًا منْ ثورةِ جَماهيرِ الفقراءِ فدعَا معاويةُ «أبـا ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قَصْـره.. وقدّمَ له مائدةً حافلةً بشـتَّى ألـوانِ الطعامِ مَا لمْ يذقْهُ«أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى حَياته منْ قبل ولكنه أبى أنْ يأكلَ وقال:

- لستُ محتاجًا إلى طَعَامك يا معَاوية.. كانَ طَعَامِى صَاعًا مِنْ شَـعِيرٍ فى كلِ جُمعةٍ عَلى عَهْدِ رسُـولِ الله ﷺ ولَنْ أغيره حَتَّى ألقاه!!

فابتسم مُعَاوية وقال: لماذَا تثيرُ الفقراءَ علينا يا أَبا ذَرّ ؟

قال «أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأنكم تأخذونَ حقُوقهم منْ بيتِ المالِ، وتشيدُون بها القصورَ، وتكنزونهَا لأنفسِكُم!

قـال معاوية: إنَّ كلَّ فقيرٍ يأخذُ نَصِيبـه كُلَّ عامٍ منْ بيتِ المالِ فمَاذا تُريدُ بعدَ هَذَا ؟

قال«أبو ذَرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ الأموال تتدفقُ عَلى بيتِ المالِ، وهى تزيدُ عَامًا بعدَ عـامٍ، ونصيبُ الفقيرِ ثابتٌ لايزيدُ، وبعضُ الفقـراءِ لم تُصْرف لَهُم حُقُوقهم حَتَّى الآن !!

فاغْتَاظَ «معاوية» وصاح: مَاشأنك أنتَ يا «أبا ذَرّ»؟ هل أنتَ الوصىُّ عَلى الفقراءِ؟ وهَلْ أنتَ وَلِيُّهُمْ الذِى تُدافعُ عنهم أمامَ الوُلاَةِ والحكَّام؟!!

قال «أبو ذَرّ» رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: إنما أنا رجلٌ مسْلمٌ صَاحبتُ رسول الله ﷺ طِيلَةَ حَيَاته.. وقد عرفتُ عنه ﷺ أنه كانَ يقولُ [مَنْ رَأَى منكم مُنْكَرًا فَلْيُغَيرهُ بيده، فإنْ لَمْ يستطعْ فبلسَانه، فإنْ لَمْ يستطعْ فَبِقَلْبِه وذاكَ أضْعفُ الإيمَان] .. وأنتم أيها الحكَامُ تأتونَ المنكَرَ جهَارًا، ولاَتخشُونَ فِى اللهِ لومَة لاَئِم!!

وكان قد تجمّعَ فى هَذِه اللحظَةِ جمعٌ كبيرٌ من النَّاسِ، ووقَفُوا بِبابِ قصر مُعَاوية يهتفونَ:

«أينَ أموالُ المسلمين يا معاوية؟ أين أموالُ المسْلمينَ؟!»

وينزعجُ معاويةُ مُرْتجفًا منْ هَذَا الكلاَم.. ويقف «أبو ذَرّ» رَضِىَ اللهُ عَنْهُ يُحَاورُ معَاوية عَلى مَلأٍ من النَاسِ فى صدْقِ العَالِمِ وفَصَاحته.. ووقفَ يسألُ معاويةَ وهو غيرُ وَجِلٍ ولاَخَائِفٍ عَلى ثَرْوته، قبلَ أنْ يصبحَ حاكمًا وعن ثَرْوته اليومَ بَعْدَ حُكْمِه.. وعن البيتِ الذِى كانَ يسْكنه بمَكَّةَ المكرَّمَة، وعن قُصُوره بالشَّامِ اليوم.. ثم ينظرُ إلى الصحابة الذِينَ جَاءُوا مَعَ معاوية إلى الشَّامِ وأصبحَ لبعضِهم قصورٌ وضيَاعٌ ثم يصيح فِيهم جَمِيعًا:

- أفأنتم الذِينَ أُنزِل القرآنُ عَلى الرسـول وعِشْتُم مَعَه ولازال القرآنُ بَيْنَ ظَهْرَانِيكُم ؟؟!!

ويتـولّى الإجَابـةَ عنهم: نعم أنتـم الذين نزلَ فيكـم القرآنُ الكريمُ، وشَهدتم مَعَ الرسول معظَمَ المشاهدِ.. ألا تجدونَ فى كتابِ الله هذه الآيةَ الكريمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[سورة التوبة ٣٤ - ٣٥]

ويتابـعُ «أبو ذرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القولَ ناصحًـا مُعَاويةَ ومنْ معه، أنْ يُخْرِجُـوا كُلَ مَا بِأَيديهم مِنْ ضيَاعٍ وقصورٍ وأموالٍ وألاَيَدخر أحدُهم لنفسِه أَكْثَرَ منْ حَاجَاتِ يَوْمِه.

وفى المسَـاء أرسـلَ إليه معاويةُ الدراهـمَ والدنانيرَ الذهبيةَ كَهَدايا ولكن «أبَـا ذرٍّ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفضهَا -مُتَعَاليًا- فقد اعتبرهَا رشْوَةً له حتَّى يكفَّ عنْ مهاجمَة الأغنياءِ وقَال لحاملِهَا:

قُلْ لمعاويةَ إنَ «أبا ذرّ» لا ينوى تشييدَ قصْرٍ منَ القُصور!!

فثار معاويةُ وأرسلَ إليه منْ يُهَدده بالقتلِ إنْ لمْ يَكُفَّ عنْ كلاَمِهِ الذى يُثيرُ الناسَ ضِدُه، وضِدَّ الحكَّامِ والأغْنِياء.. ولكنّ «أبا ذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَخِرَ مِنْ هذَا التهديدِ وصَاحَ قائلاً: ما أَشْرفَ أنْ يقتلنِى معاويةُ وأنا أدافعُ عَنْ حقوقِ الفقرَاء!!

واستمرَ «أبو ذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى كفَاحِه ضد الأغنياءِ الذينَ يحرمونَ الفقراءَ مِنْ أموالِ الله.. وتنتقلُ الأخبارُ بينَ المحَافِلِ الكَبيرة ويتعالَى صوتُ «أبى ذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى البيوتِ والطرقاتِ ويستشعر مُعَاوية الخطرَ، فيكتب إلى أميرِ المؤمنينَ عثمانَ يشكُو إليه مَايقولُهُ ومايَعْمله «أبوذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.. فيطلُب عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى معاوِيَةَ أنْ يرسلَ إليه «أباذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لمقابلة الخَليفة.

ودخلَ «أبو ذرّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على الخليفة عثمانَ بنَ عفانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومَا أنِ أستوى فى مجْلسه حتَى قال له الخليفةُ:

- يا «أبا ذرّ» بَلَغنى أنك تثيرُ الناسَ وتدفعُهُم إلى الثورةِ فِى الشَام!!

- لا ياخليفةَ رسولِ الله.. ولكنِى أطلبُ منَ الأغنياءِ حقوقَ الفقرَاء!!

- ولكنَ الفقراءَ لهم أعطيات «معاشات» من بيتِ المَالِ تُدفع لكلِ منهم عَامًا بَعْدَ عَام.

- ولكنهَا أعطيات ضَئيلة «قليلة» لا تكفِى حَاجَاتهم فى الحَيَاة.

- ولكننَا نلتزمُ جانبَ العدْلِ فى تَوْزيعِ الأرزَاق !

- ياخليفةَ المسلمين.. إنَ عَدْلَكَ لا شكَّ فيه.. ولكنْ هناكَ قَوْمٌ يُشَيِّدُونَ القصورَ، ويكنزُونَ الأموالَ ويقْتَنُونَ الجواهِرَ.. وكلُّ هذَا من مَالِ المسْلِمينَ!!

- أتنْكِرُ يا «أبا ذَرٍّ» أنْ يكونَ فى الناسِ أغنياء.. وأنْ يكونَ فيهم فقرَاء!! والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النحل الآية ٧١:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

- لا أنكرُ هَذَا يا خليفةَ رسول الله، ولكنِى أنكر أنْ ينامَ واحدٌ منَ المسلمينَ جائعًا وحولة آخرونَ مُنَعَّمونَ فى أطايبِ الحَيَاة!!

- بعضُ الناسِ يعملُونَ ويتعبونَ فيصِيبهم الغنَى منْ عَمَلهم وتعبِهِمْ!! ومنهُمْ مَنْ يتكاسلُ فيصيبهم الفقرُ بسببِ تَكَاسُلهم وعَدَمِ عَمَلهم..

- ولكنَّ معظمَ الأغنياءِ هُم منَ الولاةِ والحكامِ الذينَ اغْتنوا من مَالِ المسلمينَ، ولم يبذلُوا تعبًا أوْ كِفاحًا..!!

***

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

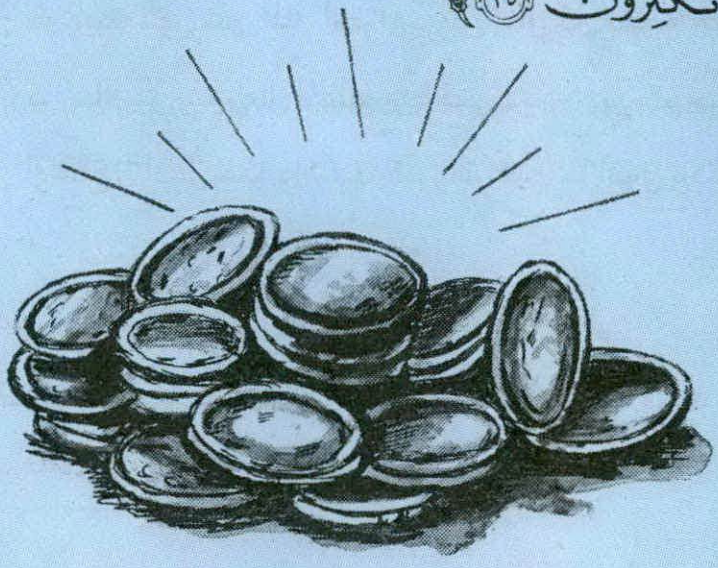

استمرَ «أبو ذرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحدث الفقراءَ الذينَ يجيئُونَ إليه منْ كلِ ناحيةٍ ويقولُ:

«اعلمُوا أيَّهَا الناسُ أننى لا أدعُو إلى مُصَادرةِ أموالِ الأغنياءِ أو الإنتقاصِ منها، أو الاستيلاءِ عليهَا مِنَ أجلكم.. إنمَا أنا أدعُو الأغنياءَ إلى أنْ يتبرعُوا بجزْءٍ يَسيرٍ منْ أموَالهم فى أعمالِ البر والخيرِ ومسَاعدةِ الفقراءِ والمحْتَاجينَ!!.. كَمَا أدعُو إلى مُحَاربة الإسرافِ، وإنفاقِ الأموالِ فى الترفِ والأبهةِ، وبينَ الناسِ منْ هو فِى حَاجةٍ إلى المَالِ.. كما أننِى أدعُو إلى المحَافظةِ عَلى أموالِ المسْلمينَ التى تُجمع مِنَ الضرائبِ فلا يتصرفُ فيها إلاَّ الأمناءَ عليهَا الذِينَ يخافونَ الله ويبتعدُونَ عَنِ المالِ الحَرَام.. وأن ينالَ كلٌ منكم حَقَّهُ المشروعَ كلَّ عامٍ منْ بيتِ مالِ المسْلمين. حَتَى لايكونَ بينكُم جائعٌ أو بائسٌ أومحْتاج!! أقولُ هَذَا وأشهِدكُم والله على ما أقولُ وَكِيل

***

استدعَى الخليفةُ عثمان «أبا ذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقَال له:

- يا «أبا ذَرٍّ» اخترْ لكَ مَكانًا تعِيشُ فيه!! مارأيك فى مكة المشرّفة؟!

- لا ..

- الشَّام ؟

- لا ..

- البصْرَة ؟

- لا .. ولكنى أسِيرُ إلى ‹‹الرندة››.

وكانتِ ‹‹الرنـدة›› ناحية فى الصَّحْراء بَعِيـدة عَنِ العمرانِ يسـلكهَا الحجاجُ فى طَرِيقهم إلى مكـة المكرمة، فأمر الخليفةُ بترحيلِ ‹‹أبى ذَرّ›› رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى ‹‹الرندة›› فرحلَ إلى هناكَ إلى مَنْفاه، وبنَى له الخليفـةُ هناكَ دارًا، وأعطاه بعـضَ الإبل، وخَصَص لـه كلَّ يومٍ عَطَاءً يعيشُ منه.. وهنـاكَ بَنَىَ ‹‹أبو ذَرّ›› رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مسـجدًا للعِبَادة، وأصبحَ يقضِى أيامه فى المسْـجِدِ، يستقبلُ فيـه منْ يمرُ بـه مِنَ الحجيج المسْـلمين وتمرُ الأيامُ والسِـنُونَ، ويمرض ‹‹أبـو ذَرّ›› رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرَضه الأخير.. وفـى أحدِ الأيام مـرتْ جماعةٌ بدارِ ‹‹أبـى ذَرّ›› رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فوجـدُوا زوجَته تبكِى فقالُوا لَهَا: مايبكيكَ يا أَمَةَ الله؟

فقالت: عَبْدٌ من المسـلمين يَحْتَضِـرُ.. وليسَ لدىَ كفنٌ أكفنه فيه!!

قالوا: ومنْ يكون؟

قالت: ‹‹أبو ذَرّ››

فصـاحَ الجماعةُ: صَاحبُ رسـولِ اللهَ ﷺ ؟!!طُوبَى لكَ ياخَلِيل ‹‹صديقِ›› الرسول ﷺ .

وخلعَ واحدٌ مِنْهم رِداءه وكفَّنَهُ به.. ثُمَ وسَدُوه التراب.

وتحكِي زوَجتُه قائِلةً: كانتْ آخر كلمةٍ نَطَقَ بها «أبوذَرٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ:

- قَـال لِي رسـولُ الله ﷺ .. يا«أبـا ذَرٍّ».. تمشِـى وَحْدك، وتموتُ وَحْدك، وتُبْعَثُ وَحْدك... صدقتَ يارسول الله..

وكانت وفاته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سنة ٣٢هـ.

المراجع

* القرآن الكريم

* السنة النبوية

* خالد محمد خالد - رجال حول الرسول - المقطم للنشر والتوزيع.

* محمد فهمى عبد الوهاب - شهداء الصحابة فى صدر الإسلام - دار الإعتصام.